الرؤية الاستشراقية لجهود الصحابة في نشر الإسلام
وأثرها في الدراسات المعاصرة "دراسة تحليلية نقدية"

د/ هيثم عبد الرحمن عبد القادر*

المقــدمة

الحمد لله على نعمه التي لا تُحصى، وعلى عطائه الذي لا يُسْتَقصى، الذي اختار أمة الإسلام، وفضَّلها على سائر الأمم، وجعلها خير أمة أخرجت للناس، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ (1)، وصلى الله على نبيه المصطفى، ورسوله المجتبى، الذي أوتي من الكلم جوامعه، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان. وبعد:

فلقد اتخذ المستشرقون للطعن في الإسلام أشكالاً متعددة، وطرقاً متنوعة، ومن تلك الطرق التي سلكوها لهدم الدين الطعنُ في الرجال الذين حملوا مشاعل النور، وأمانة الدعوة والبلاغ، بالحكمة والموعظة الحسنة إلى أهل الأرض في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته، فكالوا التُّهم لعامتهم، وتفننوا في الافتراء على الأعلام منهم، وانتقصوا من قيمتهم وقامتهم، وقدرهم ومكانتهم، وطعنوا في عدالتهم؛ لأنه إذا زالت الثقة عنهم أصبح كل الذي بين أيدينا مشكوكاً فيه، ورحم الله الإمام "أبو زرعة الرازي" حين قال: "إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم الزنادقة"(2).

وفي ضوء ما تموج به الساحة الغربية والعربية من تطاول على الصحابة الكرام، خاصة فيما يتعلق بجهودهم في نشر كلمة الإسلام، كان من المناسب جدًا أن أتناول هذه القضية التي شغلت الفكر الاستشراقي ردحًا من الزمان، عمدوا فيها إلى توجيه اللوم

---

* محاضر بكلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة / جامعة الأزهر. مصر.

(1) آل عمران: 110.

(2) الكفاية في علم الرواية، لأبي بكر أحمد بن علي ثابت الخطيب البغدادي، ص: 49، د. م، 1357هـ، دائرة المعارف العثمانية، الهند.

والاتهام وتدليس الوقائع، وتزييف الحقائق؛ حتى تأثر بهم عدد من أبناء المسلمين، بدا ذلك واضحًا فيما صدر عنهم من آراء، تنال من سيرة أولئك الأبطال وجهادهم، وصولاً إلى هدفهم المنشود، وهو تنحية الإسلام عن الحياة.

وهذه الدراسة إنما هي محاولة جادة لمناقشة الفكر الاستشراقي فيما يتعلق بموقفهم من جهود الصحابة الكرام في نشر رسالة الإسلام، وبيان كيف تأثرت بأفكارهم وآرائهم الدراسات المعاصرة، أقدمها على النحو التالي:

- التمهيد: يشمل: أولا: التعريف بأهم مفردات البحث.
- ثانيًا: لمحة موجزة عن عالمية الإسلام.
- المحور الأول: اتجاهات المستشرقين لتفسير جهد الصحابة في نشر الإسلام.
- المحور الثاني: موقف المستشرقين من انتصارات الصحابة، وأخلاقهم مع الشعوب الأخرى.
- المحور الثالث: أثر الفكر الاستشراقي في الدراسات العربية المعاصرة.
- المحور الرابع: الخطة الاستراتيجية لمواجهة الرؤية الاستشراقية.
- الخاتمة: تشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد:

أولاً: التعريف بأهم مفردات البحث:

- **الرؤية:** في اللغة تأتي على سبيل المجاز بمعنى: الإبصار بالعين، والعلم، والفكر، والاعتقاد، والعقل، والنظر، والتأمل، والفكرة، ولا تستعمل في الحقيقة إلا بمعنى الحاسة والإبصار بالعين[1]، وعليه فإن ما أقصده، هو ذلك الموقف أو الرأي أو الفكر الذي ذكره المستشرقون في كتاباتهم ومؤلفاتهم.
- **الاستشراق:** يعد مصطلح الاستشراق وما يتعلق به "مستشرق" من التسميات الحديثة التي ذاعت وشاعت شيوعًا كبيرًا؛ لذلك لم يكن هناك بأس من استعمالها، وعليه

(1) الصحاح، للجوهري، ج/6، ص:2347، ط/3، 1984م، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان.

فقد أطلقت الكلمة وأريد بها (مجموع الدراسات التي يقوم بها أهل الغرب عن الشرق: دياناته وأعراقه وثقافاته) [1] وخلاصة القول في معنى الاستشراق هو: طلب علوم الشرق وآدابه، والمستشرقون هم قوم من غير الشرقيين، أو هم الغربيون الذين درسوا الشرق من جوانبه كافة: علومه، تاريخه، أديانه، شعوبه، لغاته.

• **جهود:** وهي جمعٌ، مفردها جهد، أي: إذا سعى بجهده إلى بلوغ مراميه، وحقق هدفه بجهد جهيد: أي: بمشقة، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾ [2]والمقصود بها هي تلك المواقف أو الآراء التي انتهى إليها جهد المستشرقين حتى بلغوا بها غايتهم وانتهت إليها رؤيتهم.

• **الصحابة:** تعددت الأقوال وتباينت الآراء في بيان معنى الصحابي، وأولاها بالقبول في نظري هو تعريف "ابن حجر"، فقد قال: (وأصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمناً به، ومات على الإسلام، فيدخل فيمن لقي من طالت مجالسته له أو قصرت ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه، أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره كالعارض) [3].

• **الإسلام:** وله معاني متعددة منها: الاستسلام، والانقياد، والطاعة، والإذعان، والخضوع، والامتثال، ونظراً لهذا التنوع فقد تعددت تعاريف العلماء أيضًا لمفهوم الإسلام فقيل: (هو دين الله الذي أوحى بتعاليمه في أصوله وشرائعه إلى النبي محمد ﷺ، وكلفه بتبليغه للناس كافة ودعوتهم إليه) [4].

خلاصة القول في المعنى العام للعنوان هو:

بيان المواقف والآراء التي ذكرها المستشرقون، وانتهت إليها قناعاتهم، متعلقة بما قام به صحابة رسول الله ﷺ من جهد في نشر دين الله الخاتم، وهو الإسلام إلى الناس كافة، فيما يعرف بـ(الفتوحات)، وبيان أثرها في أبناء المسلمين من خلال الدراسات التي كتبوها ونشروها.

---

(1) الاستشراق، إدوارد سعيد، ترجمة صبحي حديدي، ص38، ط/1، 1996م، دار الفارس، القاهرة ـ مصر.

(2) التوبة: آية 79.

(3) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ص:9، ط/1، 2004م، نشر بيت الأفكار الدولية، السعودية.

(4) الإسلام عقيدة وشريعة، الشيخ محمود شلتوت، ص:7، ط/18، 2001م، دار الشروق، القاهرة ـ مصر.

ثانيًا: عالمية الدعوة الإسلامية وعمومية الرسالة.

للمسلم في هذه الحياة مهمة جليلة وعظيمة أوضحها الصحابي الجليل "ربعي ابن عامر" ﷺ في حواره مع "رستم" قائد الفرس، عندما سأله قائلاً: "ما جاء بكم؟ فقال "ربعي": إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه، لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا منه حتى نفضي إلى موعود الله، فقال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أَبَى، والظفر لمن بقي"[1]، فإذا سُمِحَ لهم بتوصيل دعوة ربهم فبها ونِعْمَتْ، وإن لم يسمح لهم بذلك قاتلوا من يمنعونهم من إيصال الدعوة.

والذي يجب أن نعلمه أن كل مسلم مُطالَب بالبلاغ عن رسول الله ﷺ، لأنه خاتم الرسل، ورسالته خاتمة رسالات الله تعالى، وعلى هذا دلت الآيات القرآنية المبثوثة داخل السور القرآنية، ومنها قوله تعالى:﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[4]، وقال جل شأنه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]، فهذه الآيات الكريمات توضح دون ريب أو شك عالمية الدعوة الإسلامية، وعمومية الرسالة التي يجب تبليغها إلى الناس أجمعين بالحكمة والموعظة الحسنة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[6].

ومن يقرأ تاريخ الإسلام يدرك أن مهمة البلاغ لم تكن لتتحقق دون الفتوحات الإسلامية، ذلكم الانسياح الواسع في الأرض، الذي لا مثيل له من قبل ولا من بعد،

(1) البداية والنهاية، لابن كثير، تح: حسان عبد المنان، ج/1، ص: 1046، بيت الأفكار الدولية، د. م، د.ت، السعودية.

(2) ص:87.

(3) يس:69-70.

(4) الفرقان:1.

(5) سبأ:28.

(6) النحل:125.

إذ لم يكن مصدره التفوق في العدد أو العدة، أو الخبرة العسكرية، فكان ذلك كله من نصيب الأعداء! إنما كان مصدرُه الحق الذي آمنتْ به تلك الأمة والتقت عليه، وسلامة المنطلق الذي تنطلق منه، فتُحَطِّم كلَّ ما تجد في طريقها من صور الباطل وأشكاله، فقد استطاعت تلك العُصْبة المؤمنة أن تسحقَ الجاهلية سَحقًا، وتمحوها من الوجود في قطاع واسع من الأرض، لا في صورة دول وحكومات وجيوش زالت من الوجود فحسب، بل في صورة عقائد كذلك، وأنظمة وتقاليد، ولم يقتصرْ عملها على إزالة تلك الدول والحكومات والجيوش بما تحمله من عقائد وأنظمة وتقاليد، فهذا عملٌ قد تقدر عليه القوى البشرية العادية - بشرط وجود التفوق العسكري - كما أتيح" لهاينبال"، و"جنكيز خان"، و"نابليون"، و"هتلر" لمُدَدٍ من الزمان، إنما الذي تفرَّدت به أمة العقيدة أنها نشرت في ربوع الأرض عقيدةَ الحق بغير إكراه، واستطاع المسلمون أن يزيلوا دولةَ فارس كلَّها، على ما كان لها من النفوذ والقوة، كما أزالوا قطاعًا كبيرًا من دولة الروم، أعظمِ دول ذلك التاريخ في ذلك الوقت، لكنهم لم يُكرِهوا أحدًا على اعتناقِ الإسلام؛ تنفيذًا لأمر الله، الذي يأمر بإزالة الطواغيت من الأرض، ويأمر كذلك بعدم إكراه الناس على العقيدة الصحيحة بعد إزالة القوى التي تصدّ الناس عن الحق، ممثلة في نظم وحكومات وجيوش، يقول الحق سبحانه وتعالى :﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[1]، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾[2].

إن المسلمين في فتوحاتهم وجهادهم لم يكونوا أبدًا خَدَمة جنس، ولا رسل شعب أو وطن، يَسْعَون برفاهيته ومصلحته وحدَه، ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان، كأن لم يخلقوا إلا ليكونوا حكامًا، ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم، ولم يخرجوا لينقُلوا إمبراطورية حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم، لا...لا، إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعًا إلى عبادة الله وحده، كما قال: "ربعي بن عامر" رسولُ المسلمين في مجلس "يزدجرد": إن الله ابتعثنا لنخرجَ الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضِيق الدنيا إلى سَعة الدنيا والآخرة، ومِن جَوْر

(1) الأنفال: 39.

(2) البقرة: 256.

الأديان إلى عدل الإسلام"[1]؛ لأن الأمم عندهم سواء، والناس عندهم سواء، الناس كلهم من آدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا أعجمي على عربي إلا بالتقوى، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2]، وفي ظل هذا الوعي الديني والدعوي لم يبخلِ المسلمون بما عندهم من دينٍ وعلم وتهذيبٍ على أحد، كما لم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسبًا أولونًا أو وطنًا، بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمَّت العباد، وغوادي مزنة أثنى عليها السهل والوعر، وانتفعت بها البلاد والعباد، على قدر قبولها وصلاحها، وليس أدل على ذلك من حصول الأمم والشعوب المضطهدة على نيل حريتهم في ظل هؤلاء، وأخذوا نصيبَهم من الدين والعلم والتهذيب والحكومة"[3]...

وفي خارج الجزيرة العربية لم يَعْقدِ الإسلام صلحًا مع الحكَّام الساسانيين والروم؛ لأن الأوَّلين فرُّوا عن أراضيهم، والآخرين كانوا غرباء، وما جاء الإسلام إلا ليخلصَ الأرض من مستغلِّيها ومستعمريها، فلم يَرَ أن يمدَّ يدَه بالصلح إلى هؤلاء، فلا شأن لهم، وإنما الشأن لأهل البلاد الأصلاء؛ لذا عقد المسلمون صلحًا مع أهل مدنٍ فتحت في الشام، ومع القبط أنفسهم في مصر وعليهم المقوقس القبطي، ولم يعقد قط صلحًا مع الرومان في شأن تلك البلاد، وكان هذا سببًا آخر في إقبال أهل البلاد على الإسلام.

لقد كان من أهم ما يعقب المعركة الحربية الإسلامية المنصورة أو المهزومة؛ إنما هو صلات المسلمين بمَن حاربوهم، أو وقفوا منهم ومن عدوِّهم على حياد أما هؤلاء فقد حرِّم على المسلمين أن يصيبوهم بأذى، ومخافة أن يصيب أهل ذمة أو صلحٍ أذًى لو كانت منازلهم في طريق الزحف أمر "عمر" قوَّاده ألا يأذنوا بدخول ديار هؤلاء إلا لمَن وثقوا في أمانته ودينه؛ وذلك لئلاَّ يهيجوا عليهم القلوب، ويكدروا النفوس، وأما أولئك فإن كان الله قد أظفرهم بهم خيَّروهم بين اثنين: الإسلام أو الجزية، وإن رَجَعوا عن المعركة منهزمين أنفذوا شروط الصلح مهما كانت الشروط، فلا بد من الوفاء، وصلح

(1) البداية والنهاية، لابن كثير، ج/1، ص:1046.

(2) الحجرات: 13.

(3) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، تأليف: السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي ص: 113-115 بتصرف، ط مكتبة الدعوة الإسلامية السادسة عام: 1385 هـ

الحديبية أولُ مَثل ضرب في الإسلام، خضع فيه المسلمون لشروط جائرة، وكان الصبر عليها كفيلاً بالخروج منها من قريب، وإسلام العدو الذي يَهَبُه على الفور كل حقوق المسلم كان مثلاً للمساواة بين الغالب والمغلوب، التي تدهش لها عقول مَن يعرفون شراسة الاضطهاد الدينية، التي ارتكبها أهل الأديان الأخرى في كل العصور، وإباءُ العدوِّ الإسلامَ لا يكلِّفه غير الجِزْية والخراج، إلا إذا كان من أهل الردة، أو من عبدة الأوثان، فليس عليه سبي ولا جزية، وإنما كان القتل أو الإسلام، وقد شُوهِد أن مجاورة الذمي للمسلم في البلد المفتوح صلحًا أو عنوة، ومزاولة التجربة بالرفق وحسن الجوار، ومصاهرة العرب لأهل الذمة، كانت كلها دوافع قوية لإسراع أهل الذمة إلى التخلص من حال دافعي الجِزْية إلى الارتفاع إلى مكان المسلم، فدخلوا في الإسلام أفواجًا، وقد عَمِل قانون الجاذبية - الذي يعمل عملاً ظاهراً في المادة - العمل نفسه في الروح وفي السلوك؛ فقد تم لبعض أهل الذمة أن كانوا في سلوكهم إسلاميين حين انطبعوا بالجوار على الخير والمعروف، وبقوا على سلوكهم الشريف، بل شاركهم الذين تأثَّروا بالإسلام من بعدُ؛ بتبادل الدراسات والتجارة والرحلات، حين أحسوا بالتسامح الإسلامي الذي يقول فيه "رينان" :"لم يظهر قط فاتحون بالغوا في التسامح والحلم نحو المغلوبين كما صنع العرب، وليس يطعن في ذلك الأمر بشدِّ الوثاق على الكفار بعد إثخانهم الذي أوصى به القرآن؛ إذ لا يراد منه الإرهاق، وإنما إحكام شروط الصلح، ولا يكلف فوق طاقته عدو مقهور، وقد يظهر ذلك غير مقبول لأول وهلةٍ، ولكن مَن يرى الدعوة للإسلام أو الجزية تسبق القتال، ويرى الحث على تسكين الهياج ومسالمة المحايدين، ويرى الأوامر المتكررة في القرآن بالوفاء بالعهود وعدم نقضها، ويرى الأمر بالجنوح إلى السلم فورَ جنوح العدو له، ويرى الوصايا بالتزام جانبي الاعتدال والتخفيف من شروط الصلح؛ كل مَن يرى ذلك تذهب عنه أول وهلة، ويستيقن أنه ليس أعطف على السلام من الإسلام، وقد صارت المدينة حرمًا آمنًا، حرَّمها النبي ﷺ كما حرَّم إبراهيم ﷺ مكة، لا يختلى خلاها، ولا يعضد شجرها، ولا يحمل فيها سلاح للقتال! فتحُ المدينةِ كان أفضل الفتوح، لقد فتحت بالدعوة دون إراقة دم أو لفحة عتاد"[1].

(1) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، ص: 120-122، مطبعة الحلبي، القاهرة ـ مصر.

المحور الأول: اتجاهات المستشرقين لتفسير جهد الصحابة في نشر الإسلام:

لقد كانت السُّرعة التي انتشر بها الإسلام مقارنة بالديانات الأخرى هي السبب الأكبر في لفْتِ أنظار العالم بعامة، والعالم الغربيِّ على وجه الخصوص لهذا الدين ونبيه ﷺ، فقاموا على دراسته تارةً، والحرب عليه تارةً أخرى، وإرسال المُغامرين والمكتشفين للأراضي المقدَّسة بحثًا وكشفًا عن أسراره مرات عدة، وهو ما أدَّى إلى إيمان بعضهم به بوصفه ديناً، أو على الأقل الإعجاب به، فتفرَّغ جماعة من المستشرقين لدراسة سرِّ انتشار هذا الدين من عصر النبوة وإلى يومنا هذا؛ إذ كان انتشار الإسلام في عهده -ﷺ- معجزة له، تبقى أيضًا معجزةً له في سرعة انتشاره في عصرنا الحاضر، ودليلاً شاهداً على صدق نبوته الباهرة، فقد أخرج الإمام "أحمد" عن "المقداد بن الأسود" ﷺ قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: "لا يبقى على ظهر الأرض بيت مَدَرٍ، ولا وَبَرٍ، إلَّا أدخله الله كلمة الإسلام، بِعزِّ عَزِيزٍ، أو ذُلِّ ذَلِيلٍ، إمَّا يُعِزُّهم الله، فيجعلهم من أهلها، أو يُذِلُّهم، فيدينون لها"(1)، وعليه فإن الصحابة الكرام رضوان الله عليهم لم يحتاجوا في نشرهم الإسلام إلى الجيوش الجرارة التي تنذر بالدمار بعد العمار، وتتوعد المخالفين بالإهلاك والعذاب، ولا إلى جيش من الدعاة يُرتبون ويلحون على الأمم أفراد ومجتمعات للدخول في الإسلام وقبوله، بل قد رأت العيون ما سر القلوب من العدل والرحمة، والخلق الحميد، والبُعد عن التعمق والتنطع المذموم من رهبنة مبتدعة وغلو في الدين.

ولعل الراصد لمواقف المستشرقين من جهد الصحابة في نشر الإسلام يدرك مدى التجني الذي يرتكبونه من تكذيب الحقائق، وتزييف الوقائع، وتشويه تلك الحقبة من تاريخ الإسلام؛ لتتخذ طريقًا يطعنون به في حقائق الإسلام، وفي جهد الصحابة الكرام، حيث تنوعت اتجاهاتهم الافترائية على ثلاثة محاور: (دينية، اقتصادية، قومية)، غير أنه من الإنصاف العلمي الذي يلزمنا بذكر كل الآراء، فإننا وجدنا اتجاهًا رابعًا يختلف عن الاتجاهات الافترائية الثلاثة، حيث عمد أصحابه إلى دراسة جهود الصحابة في نشر الإسلام دراسة موضوعية، ينشدون منها الحقيقة العلمية والبحثية، فكونوا بذلك اتجاهًا منصفًا يتفق مع الرؤية الإسلامية التي سجلها مؤرخونا في كتب السير والأخبار وعلى

---

(1) رواه أحمد (23865)، والطبراني (20/254)، وابن حبان (6699)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد رجاله رجال الصحيح: 427/5.

سبيل الإجمال فإن اتجاهات المستشرقين لتفسير جهد الصحابة في نشر الإسلام تتنوع إلى أربعة:

أ ـ الاتجاه الأول: يتهم الصحابة بأنهم دعاة سيف وحرب، نشروا الإسلام بالقوة.

ب ـ الاتجاه الثاني: يتهم الصحابة بأنهم ماديون، نشروا الإسلام من أجل المال.

ت ـ الاتجاه الثالث: يتهم الصحابة بأنهم قوميون، نشروا الإسلام لدافع قومي لا ديني.

ج ـ الاتجاه الرابع: اتجاه منصف، يرى أن الصحابة نشروا الإسلام بالرحمة والمحبة.

الاتجاه الأول ومناقشته: اتهام الصحابة بأنهم دعاة سيف وحرب، نشروا الإسلام بالقوة.

هذا الاتجاه يمثله في رأينا قطاع كبير من رجال الاستشراق القدامى والمحدثين، والسبب في ذلك ـ حسب رؤيتهم ـ أن الإسلام ذاته دين السيف والقتل، انتشر بالقوة معتمدًا على السيف والقتل، وتأسيسًا على هذه الرؤية المغلوطة فإن جهود الصحابة لنشر الإسلام تقع في إطار هذا الاتهام، فالصحابة بالنسبة لهؤلاء، متعصبون، جامدون، يسفكون الدماء، لنشر الإسلام وفرض السيطرة على الناس، وأغلب الظن أن تلك الصورة المشوهة إنما تكونت بفعل رهبان الكنيسة الغربية والشرقية، من خلال مواعظهم ودراساتهم حتى صارت من الأمور المسلمة لديهم[1]، وكمثال لهذا الاتجاه أُورِدُ ما كتبه المستشرق الألماني "جون هيجل" (1770-1831م) في إحدى مقالاته الصحفية حيث يقول: "كان الإسلام دائما وسيبقى دائمًا دين السيف، لأنه لا يمكن العثور على فكرة للحب في القرآن"[2]، ويتابعه في هذا الزعم "المونسنيور كولي" في كتابه (البحث عن الدين الحق) حيث يقول:"برز في الشرق عدوٌ جديد هو الإسلام، الذي أُسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب، ولقد وضع محمد السيفَ في أيدي الذين تبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق؛ ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات في الجنة؛ وبعد قليلٍ أصبحت آسيا الصغرى وإفريقيا

(1) صليب الدمار رسالة إلى بابا الفاتيكان، ليلى الهاشمي، ص: 20-24، ط/ مؤسسة راند هاوس، الولايات المتحدة.

(2) من مقال للكاتب PAUL HARVEY في صحيفة THE DAILY ADVERTISER عدد الخميس: 15 يناير 1981م.

وإسبانية فريسةً له، حتى هدّد إيطاليا، وعمَّ الاجتياحُ نصفَ فرنسا"[1]، ولعل ما أورده المستشرق الفرنسي (ج . بلزاك) (1799-1850م) في كتابه (تاريخ حضارات الشرق الأدنى) الذي يدرس لطلاب الصف الخامس في المدارس الفرنسية في بيروت لهو أكبر دليل على ما تعانيه مجتمعاتنا من الغزو الفكري الذي أصاب أكثر المناهج الدراسية داخل الوطن العربي حيث جاء فيه: "وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة ذلك"[2]، وبعامة درج هؤلاء على تصور خاطئ ينتقد الإسلام وينتقصه ويصف حضارته بأنها حضارة همجية بربرية، اتخذت العنف وسيلة لتمرير رسالتها وإخضاع مخالفيها.

والحق أن أصحاب هذا الاتجاه متعصبون جامدون لا يحيدون عن فكرتهم التي تقررت في أذهانهم عبر تاريخ طويل مما قرره الكهنة في المجتمع الغربي من الزعم بأن الإسلام قد انتشر بالسيف، واعتمد على بطش المبلغين والناشرين لمبادئه وهم الصحابة والتابعون، وتلك تهمة باطلة، وذلك لعوامل؛ أهمها:

- أن نبي الإسلام -ﷺ- هو أول مَن يعرف أن كلَّ محاولة لفرض دين عالمي وحيد هي محاولة فاشلة، بل هي مقاومةٌ لسنة الوجود، ومعاندة لإرادة رب الوجود الذي قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[5].

(1) المستشرقون وموقفهم من أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، أشرف عباس القاسمي، مقال منشور (مجلة الداعي الشهرية) جمادى الآخرة 1436- مارس أبريل: 2015م، العدد/(6)، السنة: (39)، الصادرة عن دار العلوم ديوبند، الهند.

(2) الإسلام في قفص الإتهام، شوقي أبو خليل، ص: 86، ط/5، 1982م، دار الفكر، بيروت ـ لبنان.

(3) هود: 118.

(4) يوسف: 103.

(5) يونس: 99.

• القاعدة الإسلامية المحكمة هي قاعدة حرية العقيدة: قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (1)، ومن هنا رسَم القرآن أسلوب الدعوة ومنهاجها، فجُلُّها دعوة بالحجة والنصيحة في رفق ولين قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (2).

• لا يكتفي الإسلام بعدم إكراه أحدٍ على الدخول فيه، بل يُوصِينا القرآنُ في معاملة الوثنية - التي هي أبعد الديانات عن الإسلام، فضلاً عن الرسالات التي تربطنا بها أواصرُ الوحي السماوي - بتلك الوصية : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (3)، فأنت تراه أنه لا يكتفي منا بأن نُجير المشركين ونؤويَهم فحسب، ولا يكتفي بأن نرشدهم إلى الحق وكفى، بل يأمرنا بأن نَكفُل لهم الحماية والرعاية في انتقالهم، حتى يصلوا إلى المكان الذي يأمنون فيه.

• لم تكتفِ الدعوة القرآنية في تحديد العَلاقة بين الأمة الإسلامية والأمم التي لا تدين بالإسلام بأن تجعلها مبادلة سلم بسلم:﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ (4)؛ بل تندب المسلمين لأن يكون موقفُهم من غير المسلمين موقفَ رحمة وبر، وعدل وقسط: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (5).

• إن المتأمل في معاملات النبي -ﷺ- لمَن عاصرهم، يلحظ أنها كانت على مقتضى الحكمة، وهو رعاية حق المعاهدين ما استقاموا على عهدهم، والأخذ في معاملة المنافقين بظاهر حالهم، ومسالمة التاركين ما لم يتعرَّضوا لحرب الرسول -ﷺ- ومن لم تدخل معه في عهد ما داموا على حيادهم، وإعلان الحرب على مَن وقف موقفَ العدوِّ ومَن شاكلهم

(1) البقرة: 256.
(2) النحل: 125.
(3) التوبة: 6.
(4) الأنفال: 61.
(5) الممتحنة: 8.

في المجاهرة بالعداوة، ومَن دَرَسَ غزواته -ﷺ- وسراياه وجدَها إما حربًا لعدوٍّ لم يَدَعْ أذى وصلت إليه يدُه إلا فعلَه كغزوةِ بدرٍ، أو دفعًا لعدوٍّ مُهَاجِم، كغزوة أُحُد وحُنَين، أو مبادرة لعدو تحفَّز للشر، كغزوة بني قُرَيظة، أو كسرًا لشوكة عدو نقضَ العهد وعُرِف بمحاربة الدعوة، واتَّخذ كل وسيلة للانتقام للقضاء عليها، كفتح مكة، حارب -ﷺ- أولئك الأعداء، ونهى عن قتل النساء والأطفال والشيوخ، ونهى عن المُثْلَة، وكان يُمْضي كل تأمين يصدر من أحد من المسلمين لبعض المحاربين، "وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ"[1]، وكان يوصي بالإحسان إلى الأسرى، وقد يُطلِق سبيلَهم من غير فداءٍ.

ولنا أن نسأل هؤلاء الذين يحصرون جهد الصحابة في نشر الإسلام بالسيف والقوة، إذا نظروا إلى مسلمي الصين وجاوة وإندونيسيا وغيرهم من الأمم التي دخلت الإسلام بمجرد الدعاية؟ وماذا لو عقدنا مقارنة سريعة بين انتشار الإسلام وانتشار المسيحية؟، إننا حتمًا سنصل إلى نتيجة مهمة، هي أن كل بناء مزيَّف إذا عاش بُرْهَة من الزمن بفضل القوة التي تسانده، لا بد وأن ينهارَ حين تختفي من حوله العناصرُ الغريبة التي ساعدت على بقائه قائمًا، وهذا ما تعانيه النصرانية المعاصرة التي انسحب بساطها، وانزوى أتباعها، يدخلون في دين الله أفواجا، بعدما أزال الإسلام سيف النصرانية عن رقابهم، وضمن لهم الحرية العقدية التي حرموا منها قرونًا طويلة،يقول المستشرق الفرنسي "شارل جنيبز":"كانت "الصليبية" دينًا يبغي العالمية، ويتَّخذ الحرب وسيلة لها، دينًا متعصبًا شديد التعصب، لا يَقبَل بالنسبة إلى العالم الخارجي أنصافَ الحلول"[2]، فيما يرى المستشرق الإنجليزي "هربرت فيشر" (1865-1940م):"فمِمَّا لا شك فيه أن تحوُّل الجموع الكبيرة من الأوروبيين إلى النصرانية قد تم تحت رعبِ السيف، وطلبًا لمكاسب مادية، لا علاقة لها بمملكة السماء وعطاياها الأخروية، ويكفي التذكرة بما فعله "شارلمان" حين قَتَل في يوم واحد 4500 إنسان رفضوا التنصر، لقد كان السيف هو

(1) أخرجه أحمد (1/ 122). وعنه: ابنه عبد الله في "السنة"(1248) وأبو داود (4530)، وهو حديث صحيح لغيره.
(2) المسيحية، جنيبز، ترجمة الإمام عبد الحليم محمود، ص/17،16، ص/ 240،239 بتصرف، المكتبة العصرية، بيروت ـ لبنان.

الوسيلةَ الوحيدة لتعاملِ الصليبية مع نفسها، والوسيلة الأولى في التعامل مع الشعوب الإسلامية"[1].

والخلاصة: أن المقارنة بين انتشار الإسلام وغيره من الدعوات تُثبِت أن غيره من الدعوات قد عَمِلت في الرقاب للإكراه على قبولها، مهدِّدة كل أمة لم تَقْبَلها بالإبادة والمحو من سطح البسيطة، مع كثرة الجيوش ووفرة العدد. أما الإسلام فلم تكن وسيلته السيف مطلقًا، بل العجب أن مَن جاؤوا إلى بلاد الإسلام أعداء مُغيرون، ما لبثوا أن دخلوا تحت جناح هذا الدين وصاروا من دعاته وناشريه.

الاتجاه الثاني ومناقشته: اتهام الصحابة بأنهم ماديون، نشروا الإسلام من أجل المال:

ويرى أصحاب هذا الاتجاه من المستشرقين أن تحمس الصحابة والعرب في فتوحاتهم إنما كان بسبب ما يعانونه في جزيرتهم من فاقة وجوع وحرمان، فقد كان ذلك هو الدافع الأساس وراء خروجهم من جزيرتهم، حيث انطلقوا راغبين وطامعين فيما عند القياصرة والأكاسرة من ثروات وأموال، ويلحق بهذا الاتجاه آراء أخرى ترى أن العلاقات التجارية بين المسلمين وغيرهم من الأمم الأخرى كانت عاملاً مهمًا وراء إسلام كثير من الكفار الذين تعنيهم هذه العلاقات، يقول المستشرق البريطاني "توماس أرنولد" (1864-1930م): "وكان أقوى من ذلك جذبًا لهم إلى الإسلام أملهم الوطيد في الحصول على غنائم كثيرة في جهادهم في سبيل الدين الجديد، ثم أملهم في أن يستبدلوا بصحاريهم الصخرية الجرداء التي لم تتح لهم إلا حياة تقوم على البؤس، تلك الأقطار ذات الترف والنعيم، وهي فارس والشام ومصر"، ويتابع كلامه قائلاً: "ويعتبر توسع الجنس العربي على أصح تقديره هجرة جماعية نشيطة، قوية البأس دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة، وتجتاح بلادًا أكثر خصبًا، كانت ملكًا لجيران أسعد حظًا منهم"[2]، ويسير على المنوال نفسه المستشرق البريطاني "ستانلي لين بول"

---

(1) حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، أحمد عبد الوهاب، ص: 101 بتصرف، ط/1، 1981م، مكتبة وهبة، القاهرة ـ مصر، والإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي (ج/1 ص:292) بتصرف، ط/ لجنة التأليف والترجمة والنشر، الثالثة عام (1968)، والإسلام وخرافة السيف د/ عبدالودود شلبي(ص :164) ط/مؤسسة الخليج العربي سنة(1407هـ/1987م).

(2) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة: حسن إبراهيم، عبد المجيد عابدين، ص:64، ط/2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ـ مصر.

(1854-1931م) فيقول: "إن من المحقق أن تحمس العرب للفتوح كان يؤججه عنصر قوي من التعصب للدين والرغبة في نشره، فقد حاربوا؛ لأن مثوبة الشهداء وكؤوس السعادة والنعيم كانت تنتظر من يقتلون في سبيل الله، غير أننا لا نستطيع أن ننكر أن ثروة القياصرة والأكاسرة والأراضي الخصبة والمدن العامرة في الممالك المجاورة كانت عاملاً كبيرًا في تحمس المسلمين"[1]، ويتابعهما في هذا الزعم المستشرق الهولندي "رينهارت دوزي" (1820-1883م) قائلاً:"فقد كان المعروف أن أوامر الدين تسقط الجزية في الحال عمن يسلم من الذميين الذين في دار الإسلام مسيحيين كانوا أم يهوداً ولا تجبى هذه الجزية إلا ممن بقي على دين أسلافه، فكان من جزاء هذا الطعم الذي يزكيه الطمع أن أخذت الملة الإسلامية تتلقى كل يوم في أحضانها جماعات من المسلمين الذين لم يعتنقوه إيمانًا تامًا منهم، بل كان همهم الأول الاحتفاظ بالمال والمتاع الدنيوي"[2]، هذا فيما يرى المؤرخ اللبناني "فليب حتى" (1886-1978م):"أن الحاجة المادية هي التي دفعت معاشر البدو وأكثر جيوش المسلمين منهم إلى ما وراء تخوم البادية القفراء، إلى مواطن الخصب في بلدان الشمال، ولئن كانت الآخرة أو شوق البعض إلى بلوغ جنة النعيم قد حبب لهم الوغى فإن ابتغاء الكثيرين حياة الهناء والبذخ في أحضان المدنية التي ازدهر بها الهلال الخصيب كان الدافع الذي حبب لهم القتال"[3]، وبعامة فإن تلك النظرة الدونية لحصر جهد الصحابة في نشر الإسلام كانت السمة الغالبة على مستشرقي العصر الحديث.

• ولمناقشة هذا الاتجاه نقول: كثيرًا ما تقع الأسرة البشرية فريسة المطامع الشخصية والأهواء المادية، وقد تظل الأمة سنين طويلة تحت أعباء التكاليف القاسية والالتزامات الظالمة، وتمر الأجيال بهذه الحلقة المظلمة من حياتها وتعاني فيها الأمرَّين في سبيل إرضاء المستعبدين وتحقيق مآرب المتغطرسين والمتجبرين، ثم إننا نجد الدورات الاقتصادية والهزات العنيفة التي يتعرض لها العالم بأسره بين حين وآخر، منشؤها غلوّ

(1) موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، د/ أحمد شلبي، ج/1، ص:291، ط/7، 1977م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ـ مصر. نقلاً عن: تاريخ مصر في العصور الوسطى، ترجمة أحمد سالم، تقديم: أيمن فؤاد السيد، مكتبة الأسرة، القاهرة ـ مصر.

(2) تاريخ مسلمي إسبانيا، رينهارت دوزي، ترجمة حسن حبشي، ص:138، ط/1، 1963م، دار المعارف، القاهرة ـ مصر.

(3) تاريخ العرب، فيليب حتى وآخرون، ج/1، ص: 195، 196، ط/4، 1965م، دار الكشاف، بيروت ـ لبنان.

بعض المستبدين في التحكم بمصائر البشرية، وإدامة التسلط على موارد شعب ضعيف واستغلال خيراته وإنتاجه الطبيعي، وإذا كانت أساليب الحياة قد تغيرت، فإن الوصول إلى الأهداف السابقة أصبح يتقمص ضمن برود ناعمة، ومظاهر براقة، وإنه لمن العجب العجاب أن يظل بعض الناس مخدوعين بما يقصده أولو الحول والطول من إنشاء الصداقات، وإظهار التودد والتحبب لأشخاص الحكام في بلاد العرب، حتى يتم لهم نقل منتجات البلاد وخيرات الأرض إلى بلادهم في مقابل تعويضات قليلة، وكان الأجدر بهؤلاء أن يسخروا الإنتاج في سبيل إصلاح بلادهم، وأن يقصروا الانتفاع به على مواطنيهم من أمة العرب والإسلام، وبهذا فإنهم يزيدون -ويا للأسف- في قوة القوي وضعف الضعيف، ولولا تصادم مصالح الدول الكبرى في العصر الحديث لما تورعت إحداها عن محاولة بسط نفوذها على العالم وربطه بأغلال التبعية والاستذلال والاستعباد، والتاريخ القريب لحروب الدول الحديثة يشهد بهذه الحقيقة، وهي: أن الباعث عليها كان وما يزال هو حب الإبادة والاستعباد الشخصي أو القومي، أو العداء الديني أو التعصب الأعمى التقليدي، أو سلب ثروات الأمم، أو إشباع لذة القهر والسيطرة والاستعلاء، أو تأمين المصالح الاقتصادية أو دعم المكاسب السياسية أو تحصين القواعد العسكرية أو فتح المجالات الحيوية والأسواق الاقتصادية أمام زحف شعب من الشعوب وتقدمه وارتقائه على حساب الشعوب الأخرى، فهل في ذلك تحقيق الخير للعالم أو الحفاظ على المدنية والحضارة أو توفير مصالح الناس وإشعارهم بمحبة أعضاء الأسرة العالمية؟ كلا. إذن: ما الأمل المرتجى من هذه الحياة؟ وهل أقفرت الدنيا من دعاة الخير والمحبة والإصلاح؟ وهل كان الإسلام في فتوحاته متأثرًا بهذه الأغراض المادية أو ما يسمونه بالاستعمار؟.

الواقع أن الإسلام لا يبغي من نشر دعوته في الأرض إلا رعاية مصالح البشر، وفتح مغاليق الظلم والجهل والتأخر، ونشر النور والمدنية والتحضر، وليس أكره في الإسلام من قصد الأغراض الدنيوية الحقيرة، أو التسابق في مظاهر الغنى والثراء أو التفاخر بمظاهر البذخ والإسراف والتنعم، وإننا لدى مقارنة الدعوات الإصلاحية في العالم لم نجد فيها

برهانًا أصدق على تحقيق الغايات المثلى والكمال الخلقي الرفيع والطمأنينة والراحة الكبرى...، من دعوة الإسلام، دعوة الحق والنور والبرهان والمعرفة، وإن الدارس لعقود الصلح والمعاهدات التي كان المسلمون يعقدونها مع غيرهم من البلدان لا يجد أثرًا معتبرًا لقصد المنافع الاقتصادية، أو ما يسمونه بالحماية الاستعمارية اليوم، وغاية ما في الأمر هو العثور على ضريبتين من الضرائب المعروفة بين الأمم في ذلك الزمن، ألا وهما:الخراج، والجزية، وهذان لم يكونا من مستحدثات الإسلام، ولا من مستلزمات شرعته ومعاهداته، وإنما كانا في الواقع من التنظيمات السياسية الملحوظ فيها مبدأ التعامل بالمثل، ومراعاة مألوف الأوضاع الحربية السائدة، وتعويض العرب القاطنين في الحجاز عن أرباح التجارة التي كان الروم والفرس والمشركون يأتون بها إلى جزيرة العرب، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾[1].

وبناء على ذلك لم تكن الجزية والخراج في داخل الدولة الإسلامية إلا ضرورة من ضرورات المجتمعات المنظمة التي تضطر فيها الحكومات للقيام بأعباء كثيرة نحو مجموع المواطنين؛ كتنظيم المرافق العامة، وتوفير الأمن والطمأنينة، أو في نظير حماية الأقلية والمحافظة عليهم بدليل إعفائهم من الإسهام في الدفاع عن كيان الأمة ورد المعتدين، إذ المسلمون في مقابل الجزية والخراج يتحملون أعباء مالية كثيرة يؤدونها للدولة كالزكاة بأنواعها المختلفة والصدقات والتكاليف الطارئة، وقد ضرب المسلمون أروع الأمثلة في تمسكهم بمقتضى التزامات عقد الذمة، فكانوا يردون الجزية إلى أصحابها إذا داهم المسلمين خطرٌ أجنبي قد لا يتمكنون بسببه من حماية الأقليات في بلادهم، ومن ذلك ما فعل "أبو عبيدة بن الجراح" حينما حشد الروم جموعهم على حدود البلاد الإسلامية الشمالية، فكتب "أبو عبيدة" إلى كل والٍ ممن خلفه في المدن التي صالح أهلها، يأمرهم أن يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج، وكتب إليهم أن يقولوا لهم: "إنما رددنا عليكم أموالكم؛ لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم

(1) التوبة: 28.

إن نصرنا الله عليهم، فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم، قالوا: "ردَّكم الله علينا ونصركم عليهم (أي على الروم النصارى)، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئًا، وأخذوا كل شيء بقي لنا"[1]، وهذا مما يدل على أن هذه الأقليات كانت في رضا مطلق ووفاء وإخلاص أصيل لحكم المسلمين، وقد حصل نظير هذا في الحروب الصليبية، فردّ صلاح الدين الأيوبي الجزية إلى نصارى الشام حين اضطر إلى الانسحاب منها.

وهكذا يبدو جليًّا أن الجزية لم تكن حقًّا تعطيه القوة للغالب على المغلوب، وإنما كانت منفعة جزاء منفعة، وأجرًا جزاء عمل، بل إن مغارم الجزية كانت أكثر من مغانمها، وعلى العموم فهي لم تكن من مبتدعات الإسلام، وإنما كانت مقررة عند مختلف الأمم كبني إسرائيل واليونان والروم والبيزنطيين والفرس، وكان أول من سنَّ الجزية من الفرس كسرى أنو شروان (531-579م)، وهو الذي رتب أصولها، وجعلها طبقات، وعليه فإن الحالة العامة بين الأمم كانت تألف نظام الجزية، والإسلام أقرَّ ذلك فقط تحت وطأة الضرورات الاقتصادية التي لا بُدَّ منها لكل نظام في العالم، بل هي في مصلحة غير المسلمين أولاً وبالذات.

أما الجزية والخراج في ظل العلاقات الخارجية فهي ليست من قواعد النظام العام التي لا يجوز الخروج عليها، بدليل أننا وجدنا في التاريخ الإسلامي كثيرًا من المعاهدات التي لم تكن قائمة على أساس الالتزام بأي واجب مالي، مثل: معاهدة صلح الحديبية، والمعاهدات التي عقدها الرسول -ﷺ- في المدينة بين الأوس والخزرج واليهود، وبعد انتقال الرسول -ﷺ- إلى الرفيق الأعلى أجمع المسلمون على أن لولي الأمر عقد ما يرى من المعاهدات بما يحقق المصلحة، وقد تكون المصلحة في عقد معاهدة بقصد الصداقة وأمن الجانب والتزام الحياد، وأما الفتح الإسلامي فلم تكن غايته ضم البلدان إلى الوطن الإسلامي بقصد سلب أموال الأهالي، أو التسلط على ممتلكاتهم أو استغلال مواردهم الطبيعية وخيراتهم المعدنية أو الزراعية، أو إحراز الغنائم، يدل على هذا كلمة عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى- الخالدة التي وجهها لبعض ولاته وهي: (إن الله بعث محمدًا بالحق هاديًا ولم يبعثه جابيًا)، وقال "ربعي بن عامر" مبعوث "سعد بن أبي وقاص" إلى

(1) السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية، عبد الوهاب خلاف، ج/1، ص:104، ط/1، 1988م، دار القلم ـ لبنان.

"رستم" قائد الفرس في وقعة القادسية":إنا لم نأتكم لطلب الدنيا، ووالله لإسلامُكم أحبُّ إلينا من غنائمكم"[1]، ويوضح حقيقة مقصد المسلمين من فتوحاتهم فضلاً عما ذكرناه، قول عبادة بن الصامت للمقوقس: "إنما رغبتنا وهمّتنا في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا لعدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا، ولا طلب للاستكثار منها...؛ لأن غاية أحدنا في الدنيا أكلة يسد بها جوعته لليله ونهاره، وشملة يلتحفها...؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاؤها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة"[2].

وبهذا الشكل من الزهد في الدنيا، والخشونة في المعيشة، والتفاني في سبيل إعلاء كلمة الله، كلمة الحق واليقين والإصلاح، بذلك كله فُتحت لهم جوانب الدنيا شرقًا وغربًا، وتمكنت لهم جوانب العزة والكرامة، ولو كان قصدهم نفعًا ماديًّا أو إشباع نهم اقتصادي، لما تم لهم ذلك بسرعة خاطفة لا مثيل لها في التاريخ، فقد أبان صاحبُ الرسالة محمد بن عبد الله -صلوات الله وسلامه عليه- هدفَ المسلمين الحقيقي من جهادهم؛ في الحديث الذي أخرجه "أبو داود" عَنْ "أَبِي هُرَيْرَةَ"، أَنَّ رَجُلا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-:"لا أَجْرَ لَهُ"، فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَلَعَلَّكَ لَمْ تُفْهِمْهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ يَبْتَغِي مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا، فَقَالَ:"لا أَجْرَ لَهُ"، فَأَعْظَمَ ذَلِكَ النَّاسُ، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: عُدْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ-، فَقَالَ لَهُ الثَّالِثَةَ: رَجُلٌ يُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ يَبْتَغِي عَرَضَ الدُّنْيَا، قَالَ:"لا أَجْرَ لَهُ"[3]، وروى الجماعة عن "أبي موسى الأشعري" -رضي الله عنه- أن أعرابيًّا جاء إلى رسول الله -ﷺ- وقال:"إن الرجل يقاتل للذكر، ويقاتل ليحمد، ويقاتل ليغنم، ويقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال:"من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"[4].

---

(1) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع الأندلسي، تح: محمد كمال الدين، ج/4، ص:176، ط/1، 1417هـ، عالم الكتب، بيروت ـ لبنان.

(2) فتوح مصر وأخبارها، لأبي القاسم المصري، تحقيق محمد الحجيري، ص:75، ط/1، 1996م، دار الفكر، بيروت ـ لبنان.

(3) سنن أبي داوود، كتاب الجهاد، باب في من يغزو ويلتمس الدنيا، حديث رقم (2516).

(4) هذا الحديث أورده الإمام البخاري في أربعة مواضع من صحيحه هذا أحدها في (باب من قاتل للمغنم هل ينقص

فهل بعد هذا البيان يُقال: إن مقصد الصحابة الفاتحين هو الطمع في الغنائم وسلب الأموال؟!.

وإذا كانت هذه هي حالة الفتوحات الإسلامية التي لا مجال فيها أصلاً لعقد قياس أو شبه بينها وبين أساليب الاستعمار اليوم، فإنها كانت تنشد الهدى والإصلاح وتقويم اعوجاج الأوضاع الفاسدة، ونشر الأهداف المثلى، وتبليغ رسالة السماء الأخيرة إلى مختلف الأصقاع، دون قصد العلو في الأرض أو الاستكبار؛ لأن إرادة العلو على الخلق أو التسلط ظلم، والناس جميعًا من جنس واحد، يبغضون كل ذلك ويعادونه، وقد حذر الله من مغبة الفساد والعلو في الأرض فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (1)، وقال جل شأنه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (2).

الاتجاه الثالث: اتهام الصحابة بأنهم قوميون، نشروا الإسلام لدافع قومي لا ديني:

هذا الاتجاه رغم قلة القائلين به إلا أنه لا يمكن تجاهله، فقد تزعمه أحد كبرائهم وهو المستشرق "فليب حتى" حيث قال:"إن الإسلام الذي فتح أرض الشمال لم يكن الدين بل الدولة، والعرب الذين فاجأوا العالم وانقضوا عليه إنما كانوا مدفوعين بعامل قومي، فالفوز الأول كان للقومية العربية لا للدين الإسلامي"(3)، وهذا زعم واه يعتمد

من أجره)، والثاني في (كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالماً جالساً)، والثالث في (كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا)، والرابع في (كتاب التوحيد، باب {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين}/ وأخرجه الإمام مسلم في (كتاب الجهاد) من صحيحه فقال: حدثنا محمد بن المثنى وابن بشار ـ واللفظ لابن المثنى ـ قالا حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت أبا وائل قال: حدثنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: ((أن رجلاً أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله))، وأخرجه النسائي في (الجهاد) من سننه (باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا)، ورواه أبو داود في سننه في (كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)، ورواه الترمذي في جامعه في (أبواب الجهاد، باب ما جاء فيمن يقاتل رياء وللدنيا)، ورواه ابن ماجه في (كتاب الجهاد) من سننه (باب النية في القتال).

(1) القصص: 83.

(2) الحج: 40-41.

(3) تاريخ العرب، فيليب حتى وآخرون، ج/1، ص:197، مرجع سابق.

قائله على الرؤية الضبابية لمفهوم الإسلام؛ ذلك أن الإسلام لم يعارض انتساب الإنسان إلى قومه أو وطنه أو أهله؛ بل إنه يشجع هذا المسلك إذا كان على أساس التواصل وصلة الرحم، ولا يمنعها إلا في حالة واحدة، وهي الحالة التي يصبح ولاء الناس ومعاداتهم ومحبتهم واجتماعهم وافتراقهم كله قائم على دعوى القومية والتعصب، وتقديمها على الأخوة الإسلامي؛ لكونه وضعًا منحرفًا، تصبح به القومية تشريعًا جديدًا لا تستند فيه إلا على الحكم الوضعي البشري بالمخالفة لحكم الله تعالى، وما أجمل أن يترك الإنسان كل علاقة خارجة عن الإسلام محاكيا في ذلك قول سلمان الفارسي ﷺ، حينما سمع بعض الناس يفتخر بأنسابهم وأقوامهم فقال عن نفسه:

أبي الإسلام لا أب لي سواه***إذا افتخروا بقيس أو تميم

وأما حينما يصل التعصب للقومية على حساب العقيدة والدين، فهذا لا يعترف به الإسلام، وما أكثر ما ورد عن سير السلف الصالح رضوان الله عليهم من الصحابة من تقديم أخوة الإيمان على أخوة النسب أو الدم، ولنا في مؤاخاة الرسول -ﷺ- بين المهاجرين والأنصار في أول الإسلام خير شاهد على ذلك، فإن قصصهم العطرة وسيرتهم المرضية، لا تزال تضيء نورًا وهاجًا وعبيرًا فواحًا إلى يومنا هذا.

ولعله من الأمور البدهية التي يدركها المسلمون، أن الإسلام ودعوى القومية لا يتفقان؛ لأن مصدر الإسلام هو الله جل وعلا، ومصدر القوميات هي الجاهليات وعقول البشر القاصرة، وكذلك فإن إعراض القومية عن الدين وعدم تحكيمه والرجوع إليه والاستغناء عنه بشعار تلك الجاهليات أمر لا يقره الإسلام ولا يسايره بحال، كما أن تقديم الأخوة القومية على الأخوة في الدين هو كذلك أمر يرفضه الإسلام، إذ الموالاة بين المسلمين تكون بالإسلام والإيمان:﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[1]، لكن القومية لا تقوم إلا على بغض الآخرين والتعالي عليهم والفخر بالأحساب والأنساب وغيرها من مخازي الجاهلية التي حاربها الإسلام، وذلك كله مانع أصيل من تحقيق رسالة البلاغ التي نبذت القومية ودعت إلى المساواة والعدل بين

(1) التوبة:71.

الناس، ولم يَدُرْ في خلدهم لحظة واحدة أنهم ينشرون الإسلام بدافع القومية العربية التي أذابها الإسلام في نفوس أتباعه.

الاتجاه الرابع: اتجاه منصف، يرى أن الصحابة نشروا الإسلام بالرحمة والمحبة:

أولئك هم من درسوا تلك الظاهرة دراسة منهجية، وتحلوا بالإنصاف والموضوعية، فذكروا ما يثلج الصدر عما افتراه أقرانهم وزملاؤهم من المستشرقين الآخرين، حيث يقول المستشرق الفرنسي "دي كاستري" (1850-1927م) في كتابه الرائع (الإسلام خواطر وسوانح):"إن شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم، وهذه المحبة التي دفعت العرب في طريق الفتح"[1]، ولقد غفل هذا المستشرق عن سبب رئيس، ألا وهو أن ما يحمله الصحابة رضي الله عنهم هو الإسلام الحق، الناسخ لجميع الأديان السابقة، فماذا عسى الباطل أن يفعل مع الحق إذا تقابلا؟ ﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2]، هذا فيما يقول المستشرق الهولندي "دي بور" (ت1942م):"أفلح محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو وخلفاؤه الراشدون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي (11-50هـ/ 632-661م) في أن يبعثوا في نفوس أبناء الصحراء الأحرار، وفي نفوس من هم أكثر منهم تحضرًا من أهل البلاد الواقعة في الأطرافِ الاتحادَ في العمل، وإلى هذا البعث يرجع الفضل في المكانة التي يتبوؤها الإسلام كدين عالمي، ولقد صدق الله المسلمين وعده بالنصر، كأنما كان تأييده لهم إجابة لندائهم عند لقاء الأعداء (الله أكبر) لما خرجوا من جزيرتهم فاتحين، أصبحت الدنيا كأنما قد صغرت رقعتها أمامهم، فطووها في فتوحاتهم طيًّا"[3]، ويعترف المستشرق الفرنسي "جوزيف بورلو" (1915-1986م) في كتابه المسمى بـ(الحضارة الإسلامية) بأن نشر الصحابة رضي الله عنهم للإسلام كان سريعًا، حيث شمل مناطق واسعة من العالم، بل وانتشر مع الإسلام اللغة العربية، فيقول:"الوقت كان بداية القرن السابع الميلادي، والمكان شبه الجزيرة العربية، أما الحدث فهو ظهور دين جديد سيغير

(1) الإسلام خواطر وسوانح، لدي كاستري، ترجمة أحمد فتحي زغلول، ص:37، ط/1، 2008م، مكتبة النافذة، القاهرة ـ مصر.

(2) سورة الإسراء 81.

(3) تاريخ الفلسفة في الإسلام، لدي بور، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ص:5، ط/1، 1998م، مكتبة النهضة المصرية، مصر.

تاريخ العالم، ظهر هذا الدين مع النبي محمد -ﷺ- على أساس الإيمان بإله واحد، وهو الله سبحانه وتعالى، واستطاع المؤمنون بدين محمد -ﷺ- بصورة سريعة جدًا فتح أنحاء الوطن العربي وتحريره، وعلى أرض الحضارات القديمة هذه ازدهر الإسلام وانتشرت اللغة العربية"[1]، ويتابعه المستشرق الأمريكي "ستانوود كب" (1881-1982م)،قائلاً:"فلقد اجتذب العرب إلى صفوفهم أقوامًا من سلالات جنسية وعقائد دينية متباينة، وكان مرجع ذلك إلى ما امتلكه محاربو الصحراء الأشداء هؤلاء من خاصية مغناطيسية، يجهلها تمامًا أولئك الذين قاتلوهم من أكثر الأجناس تمدنًا ورقيًّا ... لقد كانوا أَكْفَاء للقتال حتى الموت في سبيل المبدأ"[2]، نعم، هناك عملية جذب، ولكن ليست مغناطيسية، كما يزعم هذا المستشرق، بل هي عملية موافقة دين الإسلام للفطر السليمة، والعقول الصريحة، المتخلصة من الشبهات والشهوات.

ومن خلال ما سبق ذكره: نجد إنصافًا لم نكن نعهده في الاتجاهات الثلاثة السابقة فيما يتعلق بجهود الصحابة في نشر الإسلام، حيث بلّغوه كما جاء عن الرسول ﷺ وأنهم لم يقتصروا على العرب، بل قد شمل أمماً كثيرةً من أهل الأرض، ممن كانت لهم دول وحضارة عريقة في القدم.

أما عن دين الإسلام الذي حمله الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، فيصفه المستشرق الأمريكي "رالف لنتون" (1893-1953م) في كتابه القيم (شجرة الحضارة) قائلاً:"وكان دينًا قويًّا يهدي إلى الصواب ويرحب بمن يريدون الدخول فيه، وفي الأيام الأولى للغزوات الإسلامية كان كل من يتبع دينهم يصبح أخًا في الإسلام"[3]، ومع وجود هذا الدين الصحيح ووجود رجاله وهم الصحابة رضي الله عنهم الذين بلغوا هذا الدين وضحوا من أجله نجد من المستشرقين من يعقد مقارنة بين الإسلام والنصرانية، فيقول المستشرق الإيطالي "ليون كايتاني" (1869-1929م) في كتابه "حوليات الإسلام":"لما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء لم تعد المسيحية التي اختلطت بالغش والزيف، وتمزقت بسبب الانقسامات الداخلية، وتزعزعت

(1) الحضارة الإسلامية لجوزيف بورلو، ريمة الفوال، ص: 9، ط/1، 2001م، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان.

(2) المسلمون في تاريخ الحضارة، ستانوود كب، ص:33، مرجع سابق.

(3) شجرة الحضارة، رالف لنتون، ترجمة: أحمد فخري، ج/3، ص:339، ط/1، 1900م، المركز القومي للترجمة.

عقائدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من هذه الشكوك، نقول: إنه لم تعد تلك المسيحية قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة التي لا تقبل الجدل، وحينئذ ترك الشرق المسيح، وارتمى في أحضان العرب، ولا عجب فقد منح الإسلام العبد رجاءً، والإنسانية إخاءً، ووهب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية"[1]، هذا فيما تصف المستشرقة الإيطالية "لورا فاغليري" (1893-1989م) الإسلامَ فتقول:"لقد قوضت حضارتان، وزعزع دينان، فإذا بفيض جديد من حياة عارمة يتدفق في عروق تلك الشعوب الخائرة القوى، لقد تجلى أمام عيون العالم المندهش دين جديد، بسيط سهل، يخاطب القلب والعقل جميعًا، وأقيم شكل جديد من أشكال الحكومة كان أسمى إلى حدٍ بعيد ـ في خصائصه ومبادئه الأخلاقية ـ من تلك المعروفة في ذلك العصر"[2].

وبالنظر والتأمل فيما سبق، ندرك أن الإسلام يحظى بالقبول والوفاق من كل صاحب عقل وفكر، يحمل عقلاً ناضجًا، ومنهجًا علميًّا، فحتمًا سيصل إلى ما وصل إليه هؤلاء المستشرقون المنصفون.

المحور الثاني: يشمل نقطتين :

النقطة الأولى: موقف المستشرقين من انتصارات الصحابة أيام الفتح الإسلامي.

إن كثيرًا من المستشرقين طفقوا يبحثون ويعللون سبب سقوط مملكتي فارس والروم في أقل من عشرين سنة من هجرة الرسول -ﷺ- أمام المسلمين في القادسية واليرموك وغيرها من المعارك؛ لأن ذلك كان بمنزلة صدمة قوية لهم وللأجيال اللاحقة، ولذا كانت جل دراستهم لهذه الأسباب أشبه ما يكون بالاعتذار مع ما يُلمح في كثير منها من محاولة للبعد عن الاعتراف بأن انتصار المسلمين إنما كان لنصر الله عز وجل لعباده المؤمنين؛ ومرددين بأن سبب سقوط مملكتي الفرس والروم، إنما كان لنواحي سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية ودينية.

---

(1) الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، لمحمد شريف الشيباني، ص:541، دون ذكر بيانات أخرى.

(2) دفاعًا عن الإسلام، لورا فاغليري، ترجمة: منير البعلبكي، ط/5، 1981م، دار العلم للملايين، بيروت ـ. ص: 25.

فيرى المستشرق الفرنسي "ألفرد بل" (1873-1945م) بأن نجاح الفتح الإسلامي يرجع إلى عاملين اثنين، الأول: يخص المسلمين، والثاني: يخص المناطق المفتوحة، فيقول: "ولم يكن وصول الغزاة الأُول إلى بلاد الشمال الأفريقي (المغرب) بعد أن فتحوا مصر وطرابلس وبرقة، غير حلقة في سلسلة هذا الفتح الإسلامي الواسع، وساعد على هذا النجاح عاملان:

1ـ تنظيم الجماعات العربية البدوية الفقيرة تحت لواء الإسلام نظامًا وشريعة وهو ما جعل منها قوة حربية متماسكة.

2ـ الضعف السياسي والحربي والاجتماعي الذي أصاب الدول المجاورة للجزيرة العربية، ونعني بها الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية، التي أنهكت كل منهما الأخرى فيما بينهما؛ حتى بداية القرن السابع الميلادي"[1].

وانظر إلى حيرة المستشرق الروسي "بليائيف" (1895-1964م) ومحاولته البحث عن أسباب نجاح الفتح الإسلامي الذي أدى إلى تقويض بنيان مملكة فارس والروم، وانتشار الإسلام، فيقول:"ولا يزال المؤرخون حتى يومنا هذا يبحثون في الأسباب والعلل التي مكنت العرب من إنجاز تلك الفتوحات بهذه السرعة الهائلة، وفي نظرنا أن الانتصارات التي حققها العرب تعود أو ترجع في الأساس إلى الضعف الاقتصادي الذي منيت به بيزنطة وفارس الساسانية، كما تعود بوجه خاص إلى التناقضات الاجتماعية التي زادت حدتها فجأة في الدولتين، فقد بلغ ظلم السلطة في هاتين الدولتين واستغلالها للفئات العاملة حدًّا جعل الطبقات المظلومة تنظر إلى العرب بوصفهم منقذين لهم من نيران الروم وفارس، كما أن العرب وفَّرُوا لهؤلاء أوضاعًا وظروفًا تفضل تلك الظروف التي كانوا يعيشون فيها في ظل حكم تلك الدولتين، وأدى اضمحلال الموارد المادية في الإمبراطورتين البيزنطية والفارسية إلى ضعفهما عسكريًا، فأهمل أمر الدفاع والتحصينات في الأماكن التي كان لهم فيها حاميات، وقد يكون هذا سببًا آخر في انعدام المقاومة في وجه الفتوحات العربية"[2]، فالمستشرق في بحثه عن أسباب الفتح

(1) الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي من الفتح العربي إلى اليوم، لألفرد بيل، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، ص:76، ط/1، 1987م، دار الغرب الإسلامي.

(2) العرب والإسلام والخلافة العربية، بليائيف، ترجمة عبد الحميد متولى،ص:182، ط/1، 1965م، مؤسسة نوفل،

الإسلامي، ونجاحه في انتشار الإسلام، والقضاء على أقوى دولتين في العالم (فارس، والروم) اقتصر على أمور مادية،هي: (الضعف الاقتصادي، والتناقضات الاجتماعية التي أدت إلى ظلم الرعية، مع وجود الضعف العسكري، مع تجنبه لإثارة الناحية الدينية لكونه ماركسيًّا ينابذ الدين).

أما المستشرق الفرنسي "جوستاف لوبون" (1841-1931م) فيقول في كتابه (حضارة العرب):"كانت دولة الروم، التي أنهكتها محاربتها لدولة الفرس، وكانت تعاني عوامل الانحلال الكثيرة في دور الانحطاط، فلم تكن غير هيكل نخِر، يكفي لتداعيه أقلُّ صدمة، وكانت علائم الانقراض باديةً، كذلك على دولة الفرس التي أوهنتها تلك الحروب أيضًا، وأثقل الحاكم الروماني كاهل مصر وإفريقية، وكانت القسطنطينية تستغل شوبهما[1]من غير أن تحسن سياستهما، وكانت الاختلافات الدينية ومظالم الحكام تقوض دعائمهما"[2]، وهو يزيد عمن قبله بذكر أن الاختلافات الدينية، وظلم الحكام، كانا من أهم أسباب السقوط الذريع لأعظم مملكتين في العالم آنذاك.

هذا فيما يعتقد المستشرق البريطاني "أرنولد" عند حديثه عن انتصار المسلمين وانتشار الإسلام في أفريقية أن:"الإسلام دخل أفريقية أولاً مع الجيش العربي، الذي غزا مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة: 640م (20هـ)، ويرجع النجاح السريع الذي أحرزه غزاة العرب قبل كل شيء إلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي من الإدارة الظالمة، ولما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت"[3]، فجعل ظلم الحكام من رجال الكنيسة، من الأسباب التي جعلت النصارى في مصر يقبلون على الإسلام ويرحبون به، أما المستشرق الفرنسي "كاستري" فيقول:"لانتشار الإسلام ورضوخ الأمم لسلطانه سبب آخر في هاتين القارتين (آسيا وأفريقيا الشمالية)، وهو استبداد القسطنطينية، فإنه كان قد بلغ منتهى العسف، ووصل جور الحكام إلى درجة أزهقت النفوس، فلما جاء الإسلام تراموا إليه هربًا من

بيروت ـ لبنان.

(1) شوبهما: أي خلطهما، ينظر مختار الصحاح، ص:198، مادة (ش و ب).

(2) حضارة العرب، جوستاف لوبون، ص:166، مرجع سابق.

(3) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ص:81، مرجع سابق.

الضرائب الفادحة واستلاب الأموال، لأنه كلما أسلمت عشيرة رفع عنها أثقال المغارم ورد إليها مالها المسلوب"[1]، وفي قوله هذا بعض ما كان يعانيه الناس في تلك الأمصار من العالم من ظلم الحكام وغيرهم، والإسلام هو دين العدل، لذا كان محل جذب للفطر السليمة إليه، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم هم أُسّ هذه الجيوش التي جابت العالم داعية إلى الإسلام.

ولعل المستشرق الأمريكي اليهودي المعاصر "مايكل هارت" (ولد1932م) هو أحد أهم المستشرقين القلائل الذين تحدثوا بموضوعية وإنصاف عن هذه الانتصارات التي حققها الصحابة رضي الله عنهم في جهادهم، حيث يقول:"وكان للقبائل العربية في الجزيرة شهرة بتمرس فنون القتال والحروب، ولكن عددهم كان ضئيلاً، وكانوا مبتلين بالتفرقة والحروب القبلية الضروس، ولذلك لم يكن من السهل أن يكونوا أندادًا للجيش والجرارة ...، ومع هذا فإنهم عندما تَوَحَّدُوا تحت راية محمد -ﷺ- لأول مرة في التاريخ وارتشفوا تعاليم الدين الجديد، الذي زادهم حماسًا وإيمانًا بالإله الواحد، فإن هذه الجيوش العربية الصغيرة قامت بسلسلة من فتوحات ليس لها مثيل في تاريخ البشرية...، وإذا اعتبرنا القيمة العددية فإن العرب لم يكونوا بأية حال أندادًا لخصومهم، ولكن العرب الملهمون استطاعوا وبسرعة أن يفتحوا كل منطقة ما بين النهرين وفلسطين وسوريا"[2]، فجعل سبب انتصار المسلمين (الصحابة ومن تبعهم) على الفرس والروم لاجتماعهم على دين واحد، وتحت راية واحدة، وتلك حقيقة لا يمكن تجاهلها، هذا بالإضافة إلى قوة الإيمان بالله التي أشارت إليها المستشرقة البولندية "بوجينا" فتقول:"السر في انتصار المسلمين أن الجندي منهم كان يحارب، وروحه قوية؛ لأنه مؤمن بوعد الله وبالنصر وبالغنيمة، وإن قتل كان شهيدًا ويفوز بالجنة"[3]، وهذا القول موافق لقول الله عز وجل: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ... الآية﴾[4]، ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ

(1) الإسلام خواطر وسوانح، كاستري، ص:39، مرجع سابق.

(2) المائة الأوائل، مايكل هارت، ترجمة: أسعد عيسى وأحمد غسان، ص:23، مرجع سابق.

(3) تاريخ التشريع الإسلامي، بوجينا غيان هستشيجفسكا، ص:75، ط/1، 1980م، دار الآفاق الجديدة ـ لبنان.

(4)التوبة: 54.

غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [1]، وفي الحديث الذي أخرجه الإمام "البخاري" عن "أبي هريرة" رضي الله عنه عن النبي -ﷺ- قال:"انتدب[2]الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمانٌ بي وتصديقٌ برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة"[3].

هذا فيما قامت المستشرقة الإيطالية "لورا فيشيا فاغليري" بكل جرأة للتشنيع على المستشرقين الذين خاضوا في الكلام على أسباب انتصار المسلمين (الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم) وانتشار الإسلام، بأنهم كانوا عميانًا أو يغمضون أعينهم بتعليلات وتخمينات خاطئة، فقالت:"وأزعج هذا التحول السياسي والديني العميق طائفة من الناس (المستشرقين وأذنابهم) فراحوا يتساءلون ما الذي أدى إلى حدوثه (يعني: انتصار الإسلام)؟ ولكن كثيرًا منهم كانوا عُميًّا، أو كانوا يغمضون أعينهم عمدًا هائمين طويلاً، وعلى نحو يائس في متاهات التخمينات الخاطئة، إنهم لم يستطيعوا أن يدركوا أن القوة الإلهية وحدها كان في ميسورها أن تقدم الحافز الأول لمثل هذه الحركة الواسعة، إنهم يريدون أن يعتقدوا أن حكمة الله وحدها كانت مسؤولة عن رسالة محمد، آخر الأنبياء الكبار حملة الشرائع، والنبي الذي ختم سلسلتهم إلى الأبد"[4].

وقولها هذا فيه إنصاف من جهتين: من جهة أن الله تعالى وحده هو الذي نصرهم على عدوهم؛ لأن حمايته اقتضت علو الإسلام على غيره، ولأنه دينه الذي أرسل به محمد -ﷺ-، وهو آخر الأنبياء، وإنصافه من جهة أخرى أنّ فيه اعترافاً بالرسول -ﷺ- وهو آخر الأنبياء والمرسلين.

والحق أن ذلك الحدث الجلل الذي تمخضت عنه جزيرة العرب، وأعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط، ونشر دينها الجديد في ربوعه، لهو أعجب الظواهر الاجتماعية في العصر الحديث، ولم لا وقد كانت الفتوحات الإسلامية سريعةً، ونتائجُها عظيمةً باقية، وستبقى الحيرة، وسيبقى الاضطراب في تفسير هذه الفتوح عند من لم

---

(1) النساء: 100.

(2) انتدب: أي: أجابه إلى غفرانه.

(3) صحيح مسلم، حديث رقم: 103، 104، ص:841.

(4) دفاعًا عن الإسلام، لورا فيشيا فاغليري، ص:28، وللمزيد ينظر: كتاب دواعي الفتوحات الإسلامية ودعاوى المستشرقين، د/ جميل عبد الله المصري.

يقتبس نورًا من قبس الإسلام، فلا يدرك عظمة هذا الدين إلا من ارتضاه دينًا، ونال النعمة باعتناق عقيدته.

النقطة الثانية: موقف المستشرقين من أخلاق الصحابة وتعاملهم مع شعوب الأمم الأخرى

إن جانب الأخلاق والتعامل الذي رأته الشعوب وعايشته أيام الفتوحات الإسلامية، ويمثله الصحابة رضي الله عنهم حملة الدين والدعاة إليه، مع غيرهم من التابعين كشف لهم جوانب من هذا الدين ومحاسنه، عبر عن ذلك جماعة من المستشرقين، منهم المستشرق الروسي "تولستوي" (1828-1910م) قائلاً:"وقد امتاز المؤمنون كثيرًا من العرب بتواضعهم وزهدهم في الدنيا وحب العمل، والقناعة، وبذلوا جهدهم في مساعدة إخوانهم في الدين عند حلول المصائب، ولم يمض على جماعة المؤمنين زمن طويل حتى أصبح الناس المحيطون بهم يحترمونهم احترامًا ويعظمون قدرهم، وراح عدد المؤمنين يتزايد يومًا بعد يوم"[1]، وعليه فالمستشرق "تولستوي" يفرق بين المؤمنين (وهم الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم) وبين العرب في هذه الأخلاق؛ التي كانت سببًا في قبول الإسلام واعتناقه في مناطق شاسعة من العالم.

ويمتدح الأب الكاثوليكي "بروغلي" أخلاق الصحابة رضي الله عنهم وبخاصة أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فيقول:"إن الذين آمنوا بمحمد كانوا قومًا صادقين ذوي دراية وذكاء، منهم أبو بكر وعمر رجلان توليا زمام مملكة فسيحة الأرجاء، فأحسنا سياستها، وكانا ذوي ثبات وعدل وقناعة وفضل وشدة وعزيمة، وكانا أرفع قدرًا وأبعد مرمى من القياصرة والحكام الذين حاربوهما"[2].

هذا عن أخلاق الصحابة، أما عن تعاملهم مع شعوب الأمم الأخرى، فذلك نوع من أنواع الدعوة إلى الإسلام، وجهد لا ينسى، فالصحابة الكرام رضي الله عنهم في رحلتهم لنشر الإسلام، لم يكرهوا عليه أحدًا من شعوب الأمم التي فتحت مدنها وقضى على ممالكها، لا أفرادًا ولا مجتمعات، وهذه أقلام المستشرقين شاهدة، حيث يقول المستشرق اليهودي "جولد زيهر":"وكان أولو الأمر من المسلمين يطلبون إلى قواد جيوشهم

---

(1) مقال: (نبي الإسلام في مرآة الفكر الروسي) لتولستوي، ص:717، السنة الحادية والخمسون، ربيع الأول: 1399هـ / فبراير: 1979م، نشر في مجلة الأزهر، مصر.

(2) الإسلام خواطر وسوانح، للكونت هنري دي كاستري، ص:34، مرجع سابق.

الزاحفة للفتح، وإلى عُمَّال الولايات من قبلهم أن يسمحوا لأهل الكتاب الذين يخضعونهم بإقامة شعائرهم الدينية، وأن يعاملوهم بالرحمة"(1)، وهذا دليل على أنهم لم يكرهوهم على الإسلام واعتناقه، ولو فعلوا ذلك لما سمحوا لهم بإقامة شعائرهم الدينية.

ويقول "دي كاستري":"لا نعلم للإسلام (مجمعًا دينيًا) ولا رسلاً ولا أحبارًا وراء الجيوش، فلم يُكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان، بل دخل القلوب عن شوق واختيار، وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالألباب، نعم قد اعتنق الإسلام قوم مشوا وراء منافعهم ولكنهم قليلون بجانب من أسلم عن اعتقاد صحيح وميل صحيح، وكان ذلك من أسهل الأمور لبساطة الدين وكفاية النطق بكلمة التوحيد ليصير قائلها من المسلمين، ومع ذلك فلم نر بعد استقرار الحكومة الإسلامية على محور النظام، عشائر من المسيحيين تركوا دينهم جملة واحدة، بل إنه صار من اللازم أن يثبت الإسلام لمن أراده على يد قاضي ويحرر بذلك محضر يذكر فيه أن المسيحي اعتنق الإسلام عن اعتقاد تام غير خائف ولا متكره، ولا يجوز أن يكره أحد على تغيير دينه"(2).

وهذه شهادة مفصلة على أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكرهوا أحدًا على الإسلام، بالإضافة إلى ما تميز به الإسلام من صحة العقيدة، ويسر في الشريعة وبساطة في السلوك، وهذا الذي يوافق النفوس والفطر ويجعله محل الإذعان والقبول، وأما التشكيك بأن هناك من أسلم من أجل منفعة وراء ذلك فلم يستدل لذلك، ومع وجوده فإنه لا يضر، فقد أسلم رجال في زمن النبي نفاقًا، وما ضروا إلا أنفسهم، تقول المستشرقة الألمانية "هونكة" (1913-1999م) في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) تحت عنوان: (منهج المنتصرين): (لا إكراه في الدين) "هذا ما أمر به القرآن الكريم، وبناء على ذلك فإن العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فالمسيحيون، والزرادشتية، واليهود لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة التعصب الديني وأفظعها، سُمح لهم جميعًا دون عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم، وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى، أو ليس هذا منتهى

(1) موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج/5، ص:1399، ط/1، 1998م، مركز الشارقة للإبداع، الإمارات.

(2) الإسلام خواطر وسوانح، كاستري، ص:41، مرجع سابق.

التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال، ومتى؟"[1]، وأما المستشرقة "فاغليري" فتقول:"وكان المسلمون لا يكادون يعقدون الاتفاقات مع الشعوب حتى يتركوا لها حرية المعتقد، وحتى يحجموا عن إكراه أحد من أبنائها على الدخول في الدين الجديد"[2]، وهذا يؤيده ما جاء في كتب التاريخ من أمثال: فتوح البلدان للبلاذري، وكتاب تاريخ الطبري وغيره، الذي فيه أن الصحابة لم يكرهوا أهالي تلك البلدان المفتوحة على الإسلام.

المحور الثالث: أثر الرؤية الاستشرقية في الدراسات المعاصرة:

لقد كان للاستشراق ومدارسه قوة في النفوذ والسيطرة، حيث تدعمه الدول الاستعمارية والمؤسسات الغربية السياسية الكبرى، للتمكن من غزو عقول وثقافات المسلمين، متخذين العلم ستارًا لتحقيق أهدافهم في القضاء على الإسلام وتعاليمه، وفي سبيل ذلك قاموا بتحقيق عديدٍ من كتب التراث ونشروها، وتناولوا كثيرًا من تاريخه ورجاله العظماء، وكان من هؤلاء صحابة الرسول -ﷺ-، غير غافلين عن مناهجهم في الكتابة، ومصادرهم التي يجدون في بعضها ما يمكن أن يكون إدانة للصحابة رضي الله عنهم، وتشويهًا لصورتهم في أعين ومخيلة أبناء المسلمين.

فقد تأثر بهم بعض أبناء المسلمين لتلمذتهم على أيديهم ورعايتهم، وأعجبوا بنتاجهم الفكري، وانبهروا بحضارتهم غاية الانبهار، فراحوا يرددون أقوالهم واتجاهاتهم، حتى فاقوا أساتذتهم في الكذب والافتراء، صاروا آلة طيّعة للمستشرقين، وبوقًا لإذاعة سبابهم وشبهاتهم، في حق صحابة رسول الله -ﷺ-، حيث أخذوا يسبونهم خسفًا، ويرمونهم بوابل من التهم والافتراءات التي هم منها براء، مقتفين آثار أسيادهم من المستشرقين مبتغين رضاهم، وصوروا تاريخ جهادهم في نشر الإسلام على أنه تاريخ من القتل والظلم والطغيان والدماء، أو أنه تاريخ للسرقة واللصوصية، أو الانتصار للقومية العربية، فعلى سبيل المثال نجد الكاتب المصري المثير للجدل "سيد القمني" يقول:"ولأن الدولة لم تكن دولة العدل والإحسان، بل دولة الظلم والطغيان لآدمية الإنسان، وإذلال كرامة الناس والشعوب المقهورة منذ بدء الفتوحات حتى سقوط آل عثمان، وهو تاريخ مجازر ومحارق

(1) شمس العرب تسطع على الغرب، زيغردهونكة، ترجمة فاروق بيضون، كمال دسوقي، ص:364، ط/8، 1993م، دار الآفاق الجديدة، بيروت ـ لبنان.

(2) دفاعًا عن الإسلام، ص:35، مرجع سابق. حضارة العرب، لوبون، ص:169، مرجع سابق.

في فتوح العراق وفلسطين ومصر والشام، مع ذل الرجال بهتك عرض النساء، وظلم العباد وقهر الرجال، وذل النساء على موائد السبي بالاغتصاب العلني، وصوّر فيما بعد الفتح الإسلامي تصويرًا قاتمًا، وأنه باختصار احتلال واستعمال واستغلال وسفك دماء وإرهاب وتدمير للحضارات السابقة"[1]، أما الرأي القائم على اتهام الصحابة الكرام بأنهم ماديون، فقد تأثر به القمني وآخرون، إلا أن القمني زادهم في الافتراء والتدليس حيث:"يحمل مفهوم الجهاد قوة دفع استعمارية لحوحةٍ لاحتلال البلاد الأخرى، ونقل ثرواتها، وتغيير ثقافتها"[2]، ويتابع كلامه قائلاً: "بل إن ما فعل المجاهدون عبر تاريخنا غير الجميل يحتاج من العرب اعتذارًا واضحًا عما ارتكبوه من فوادح الآثام العظام في حق الشعوب المفتوحة في تلك الأزمان البربرية"[3]، ولم يكتف بذلك الافتراء، بل زاد من تأكيده وتوكيده فقال:"إن الجهاد ليس هدفه تحرير الأرض، إنما الحور العين وأنهار الخمر، وليس هدفه الوطن وأبناء الوطن، وهو يقع اليوم موقع الهمجية المجرمة، ويحمل ضمنًا العداء المسبق لشعوب العالم، وهو يقوم على الإغارة والسلب والنهب والسبي وركوب نساء العدو، وهدفه التدمير لذاته، بل تحوَّل إلى قدرة عاجزة هي إرهاب فصيح صريح"[4]، ويتابعه في تلك المزاعم الكاتب التونسي "عبد المجيد شرفي" في كتابه (الإسلام بين الرسالة والتاريخ) فيقول:"إن الأغراض الدنيوية المحضة، هي الدافع الحقيقي للحروب التي شنها المسلمون الأوائل على البلاد المجاورة لهم، واستنكف عن استعمال الأوصاف الموضوعية التي تنطبق عليها كالاحتلال والغزو والاستعمار حسب المفهوم الحديث"[5].

أما الرأي القائل بأن الصحابة خرجوا لنشر الإسلام على أساس القومية العربية لا الدينية فقد تأثر به جماعة من العلمانيين العرب منهم الدكتور "محمد أحمد خلف" عميد كلية الآداب جامعة الإسكندرية بمصر الذي كتب مقالاً في جريدة الأهرام يوم:1987/09/16م، تحت عنوان:(الإسلام هو البدائل الإلهية للمتغيرات العربية) أنكر

(1) أهل الدين والديمقراطية، سيد القمني، ص:106، ط/1، 2006م، دار مصر المحروسة، القاهرة ـ مصر.

(2) أهل الدين والديمقراطية، القمني، ص:320، مرجع سابق.

(3) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(4) أهل الدين والديمقراطية، ص:146، مرجع سابق.

(5) الإسلام بين الرسالة والتاريخ، عبد المجيد شرفي، ص:115، ط/1، 2001م، دار الطليعة، بيروت ـ لبنان.

فيه عالمية الإسلام، وجعله خاصًا بالعرب[1]، وقال في ندوة العروبة والإسلام (علاقة جدلية) المنعقدة في بيروت سنة1978م:(إن الإسلام قد جرب أولاً في جزيرة العرب، وحين نجحت التجربة خرج به الذين جربوه إلى أممٍ أخرى غير العرب)، إذن: تجربةٌ نجحت، فلما نجحت صُدّرت، وفات الجهول أن آيات عالمية الإسلام أغلبها نزلت في مكة، وهي: الأنبياء (107)، والأنعام (19-90)، وسبأ (28)، والفرقان (1)، ويوسف (104)، وص (87)، والتكوير (27)، والقلم (52)، وعاشرة في الأعراف (158) وهي مدنية، وعليه فالقول بعروبة الإسلام تكذيب للقرآن ولله تعالى وللرسول -ﷺ- وللصحابة رضي الله عنهم والتابعين ولعلماء الإسلام على مر التاريخ.

فهؤلاء العلمانيون وأضرابهم ليسوا إلا أبواقًا للمستشرقين، صنيعة المستشرقين والمنصرين، يلعبون اللعبة التي يفرضها عليهم الغرب، فتراهم يتحدثون غالبًا بلهجة الغرب، ويستعيرون وجهه، أو يضرب بيده؛ أعني: أنه يستخدم أدواته، ولكنه لا يفيد في النهاية من هذا الغرب ما يبني به قوته ويفرض حقيقته ويصنع عالميته، وإنما يأخذ منه ما يعيد به إنتاج عزلته وهشاشته وضيق أفقه، يقول "تركي على الربيعو":"ثمة شكوى عند أغلب المثقفين العرب، من أن الغرب هو الحاضر الغائب في خطاباتهم، فقد أصبح الغرب نموذجًا للقياس، وليس للاستئناس كما يرى "الجابري"، وقد انتبه غليون إلى ذلك في بحثه عن مأزق الدولة العلمانية التي تقيس على الغرب في سعيها إلى علمنة الدولة والمجتمع، والتي تهمل دور الدين في بناء الدولة والجماعة، وهذا ما فعله على أَكْمَلِ وجهٍ الدينُ الإسلامي"[2].

المحور الرابع: الخطة الإستراتيجية لمواجهة الرؤية الاستشراقية:

لقد كثرت عمليات التهجم على الصحابة الكرام، بتحريض وتأييد بعض أبالسة الجن والإنس، بغية توهين الدين وإضعاف الثقة فيمن حملوا أمانة التبليغ عن النبي -ﷺ- إلى شعوب الأرض، ونسي أو تناسى هؤلاء المهووسون أن ما قدمه أولئك الرجال من

(1) المفترون: خطاب التطرف العلماني في الميزان، فهمي هويدي، ص:171، ط/2، 1999م، دار الشروق، القاهرة ـ مصر.

(2) الحركات الإسلامية في منظور الخطاب العربي المعاصر، على تركي ربيعو، ص:204، ط/1، 2006م، المركز الثقافي العربي، المغرب.

التضحيات، وبذل الأنفس والأموال في سبيل نصرة الدين، وإعلاء كلمة الحق وتبليغها للبشر في كل الأصقاع والأقطار، كان عاملاً رئيساً في رفع ستار الظلم والجهل الذي عاشته أوروبا والشعوب العربية ردحًا من الزمان، وأعطاهم من القوة والعلم والحضارة والرقي ما جعلهم يبارون الفرس والروم في حضارتهم ومكانتهم، فانتقلوا إلى عصر الحداثة والتقدم والازدهار بسبب الإسلام الذي لولاه ما عرفوا التقدم ولا الحضارة.

وبعامة يمكن القول بأن: المدرسة الاستشراقية الحديثة، لم تقنع بتوجهات الآباء في فشلهم للوصول إلى أغراضهم، فقاموا - هم - بالعمل على إنعاش الفكر الاستشراقي، المتراجع أمام الصحوة الإسلامية التي يشهدها العالم الإسلامي والغربي، محاولين اختراقه، وتمزيق وحدته، عن طريق الطعن والافتراء المتعمد في الصحابة والرجال الذين بلّغوا دين الله في ربوع الأرض؛ لذلك كان لزامًا أن نضع بعض النقاط التي تُسْهِم في مواجهتهم، وذلك على النحو التالي:

1- التماس العون من الله وحده لدفع كيد المستشرقين وأعوانهم:

2- وذلك من الأمور المعنوية التي ينبغي أن يتحصن بها الدعاة والعلماء، والمختصون بالدراسات الاستشراقية بخاصة، ويبثوها في نفوس المسلمين عامة، ويعلموا ويوقنوا بأن عون الله للفرد، أو المؤسسة البحثية والدعوية هو شرط النصر، وبوابته في أي مواجهة؛ فمن انتصر فالله الناصر له، ومن وُفِّق فالله الموفق له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[1]، وفي المقابل فمن لم يسدده الله فلا مسدد له، ومن فقد عون الله كانت عاقبته الهزيمة ومصيره الخذلان.

3- تعرية الخطاب الاستشراقي لكشف زيفهم وضلالهم:

لا يملك المستشرقون ما يهاجمون به الإسلام إلا الاتهام غير الموضوعي، وطرح الشبهات المغرضة حول بعض القضايا الجزئية؛ ولذلك فإن الباحثين في مجال الأديان المقارنة، والدراسات الاستشراقية، مطالبون بالحذر من أن يكونوا في موقف الدفاع

(1) سورة الأنفال: 17.

باستمرار، بل عليهم أن يسعوا لإشغال القوم بأنفسهم؛ للعمل على نقلهم من مرحلة الهجوم إلى الدفاع، ويتم ذلك بأمور كثيرة، منها:

أ ـ تحليل المناهج الغربية، وبيان خطئها في التعاطي مع قضايا الإسلام، إذ إن ما يصلح تطبيقه في البيئة الغربية ليس ضروريًا نجاحه في البيئة الإسلامية.

ب ـ تجلية الاختلافات والتناقضات الجذرية بين انتشار الإسلام وانتشار المسيحية التي أودت التصفيات الجسدية التي أُزهقت فيها آلاف الأنفس، في مقابل الإشادة بسماحة الإسلام مع الشعوب الأخرى.

ج ـ الاستفادة من جهود المستشرقين والشخصيات المستقلة والمنصفة، والذين توصلوا بالبحث العلمي المتجرد إلى رد كل الأكاذيب والتهم التي روُجت في العالم العربي والغربي.

4- إنشاء مؤسسات علمية عالمية لها دور فعال على غرار المؤسسات الاستشراقية.

مع قدم الظاهرة الاستشراقية وعظمة خطورتها لا تزال المواجهة العلمية الإسلامية لها ضعيفة، ولا ترقى إلى مستوى الفكر الاستشراقي، والسبب في هذا الضعف، هو عدم وجود أقسام علمية متخصصة في الدراسات الاستشراقية داخل الجامعات الإسلامية، تتابع مستجداتها، وتتناولها بالبحث والتحليل، والنقد، والترجمة، والرد على الافتراءات، اللهم إلا ما يقوم به قسم الأديان والمذاهب (وحدة الاستشراق) بكلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف، وكذلك ما يقوم به قسم الاستشراق بجامعة الإمام "محمد بن سعود"، حيث تعدان الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة، إذ تنبهتا منذ زمن إلى هذا الأمر، فأنشأتا أقسامًا علمية وأكاديمية لرصد ومتابعة الدراسات الاستشراقية، وهو أمر يجب أن يُحتذى به في كل الجامعات الإسلامية من أجل تكوين قاعدة من العلماء المسلمين المؤهلين دينيًّا وعلميًّا لمواجهة الاستشراق، لرد الشبه والافتراءات التي يُرمى بها الإسلام في قرآنه ونبيه وصحابته .... إلخ.

5- التصدي لحركات تغريب الفكر الإسلامي داخل أرضه:

تغريب الفكر الإسلامي مهمة خطيرة أسندت إلى كبار المستشرقين، الذين وضعوا مؤلفاتهم خصيصًا لهذا الغرض، بهدف تحطيم المسلمات والبديهيات التي يؤمن بها

المسلمون، وخلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربي ومقاييسه ونظرياته، ثم تحاكم التاريخ الإسلامي من خلالها لإظهار تفوق الفكر الغربي على الفكر الإسلامي، ولذلك ينبغي علينا صد محاولات التغريب، وخوض غمار الحرب مع التيارات المناوئة، لأن الحرب اليوم هي حرب أفكار ومعتقدات، لها أدواتها ورجالها وأسلحتها، يجري التخطيط لها بأمكر أساليب الدهاء، والذكاء والبراعة، وتحتم علينا أن نقف بقوة من أجل التصدي لها، وإثبات أصالة الفكر الإسلامي وصلابته واستقلاليته وقدرته على البقاء، محتفظًا بذاتيته في المواجهة، وهذا يتطلب منا اليقظة، والوعي، والقدرة على معرفة أبعاد الخطر.

الخاتمة وتشمل النتائج والتوصيات:

- **أولاً: النتـائج:**

1- ارتسمت رسالة الإسلام في نشرها منذ مبعث النبي -ﷺ- وفي عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم منهجًا ناصعًا يتسم بالوضوح والشفافية، يعتمد على أسس دينية ثابتة راسخة، أبرزها: عدم الإكراه في الدين، والبعد عن القتل والتنكيل، وكذلك التخريب والتدمير، والبعد عن الأغراض الدنيوية، والحظوظ الشخصية، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والتفاني من أجل إعلاء كلمة الدين.

2- اتسمت الفتوحات الإسلامية وجهود الصحابة في نشر الإسلام بالسرعة الفائقة، لما تميزت به من الرحمة والسماحة والعدالة في ظل الهدي النبوي الذي بينه رسول الله -ﷺ-، وهو ما يختلف كليًّا وجزئيًّا عن جهود أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى التي نشرت دينها بالقهر والقتل والسجن والطرد.

3- إن غاية ما يرمي إليه أهل الاستشراق وأعوانهم، هو تقديم صورة مشوهة عن الإسلام والصحابة الكرام والتاريخ الإسلامي، لترويجها داخل المجتمعات الغربية بغية صرف مواطنيهم وأهليهم عن الإسلام، وكذا ترويجها في المجتمعات الإسلامية لزرع بذور الشك فيهم وفي تاريخنا.

4- ظاهرة الطعن في الصحابة الكرام من المستشرقين والمنصرين والمستغربين تتجدد بتجدد العصور والأزمان، وهو ما يستدعي التخطيط المحكم والمدروس عبر القنوات العصرية المتاحة لتصحيح الصورة المغلوطة عنهم وصد الافتراءات والتهم الموجه إليهم.

ثانيًا: التوصيات:

1- إنشاء لجان ترجمة إسلامية ذات فاعلية، مهمتها ترجمة البحوث الاستشراقية، ثم تعرض تلك الترجمة على العلماء والمختصين كل حسب تخصصه (الفقه ـ التفسير ـ الحديث ـ السيرة، ... إلخ)؛ لبيان موقف الإسلام منها، والتواصل مع المستشرقين في إطار المناقشات داخل المؤتمرات والندوات.

2- إنشاء موسوعة علمية عالمية متخصصة تحصي كل الشبهات الاستشراقية التي سيقت عن الصحابة والرد عليها بأسلوب علمي، ثم ترجمتها إلى اللغات العالمية ونشرها على نطاق علمي واسع.

3- إقامة المؤتمرات والندوات العلمية داخل العالم الإسلامي وخارجه، للتعريف بالصحابة وجهدهم وتضحياتهم وأخلاقياتهم في نشر الإسلام، وذلك من خلال الاتفاقيات العلمية بين الجامعات، ومراكز البحوث المتخصصة في الدراسات الإسلامية للإسهام في تغيير الصورة المشوهة عن الصحابة الكرام

4- التركيز على وسائل الإعلام بكل أنواعها (المرئية ـ المسموعة ـ المكتوبة)، وأشكالها (التلفزيون ـ الإذاعة ـ المجلات ـ الجرائد والصحف ـ الإنترنت) بكونها أنها السلاح القوي الذي يعين على صد التهم الموجهة إلى الإسلام وإلى الصحابة الكرام، وعرض الحقائق صحيحة نقية إلى البشر كافة، بكل اللغات التي يتم بها البلاغ وتحقيق الشهادة على الناس كما أمر الله.

مصادر البحث ومراجعه

1ـ الاستشراق، لإدوارد سعيد، ترجمة صبحي حديدي، ط/1، 1996م، دار الفارس، القاهرة.

2ـ الإسلام بين الرسالة والتاريخ، لعبد المجيد شرفي، ط/1، 2001م، دار الطليعة، بيروت.

3ـ الإسلام خواطر وسوانح، لدي كاستري، ترجمة أحمد فتحي زغلول، ط/1، 2008م، مكتبة النافذة، القاهرة ـ مصر.

4ـ الإسلام عقيدة وشريعة، للشيخ محمود شلتوت، ط:18، 2001م، دار الشروق، القاهرة

5ـ الإسلام في قفص الإتهام، لشوقي أبو خليل، ط/5، 1982م، دار الفكر، بيروت ـ لبنان.

6ـ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ط/1، 2004م، نشر بيت الأفكار الدولية، السعودية.

7ـ الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، لأبي الربيع الأندلسي، تح: محمد كمال، ط/1، 1417هـ، عالم الكتب، بيروت ـ لبنان.

8ـ أهل الدين والديمقراطية، لسيد القمني، ط/1، 2006م، دار مصر المحروسة، القاهرة ـ

9ـ البداية والنهاية، لابن كثير، تح: حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، د. م، د. ت، السعودية.

10ـ تاريخ التشريع الإسلامي، لبوجينا غيان هستشيجفسكا، ط/1، 1980م، دار الآفاق الجديدة ـ لبنان.

11ـ تاريخ العرب، لفيليب حتى وآخرون، ط/4، 1965م، دار الكشاف، بيروت ـ لبنان.

12ـ تاريخ الفلسفة في الإسلام، لدي بور، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط/1، 1998م، مكتبة النهضة المصرية، مصر.

13ـ تاريخ مسلمي إسبانيا، لرينهارت دوزي، ترجمة حسن حبشي، ط/1، 1963م، دار المعارف، القاهرة ـ مصر.

14ـ تاريخ مصر في العصور الوسطى، ترجمة أحمد سالم، تقديم، أيمن فؤاد السيد، مكتبة الأسرة، القاهرة ـ مصر

15ـ الحركات الإسلامية في منظور الخطاب العربي المعاصر، على تركي ربيعو، ط/1، 2006م، المركز الثقافي العربي، المغرب.

16ـ الحضارة الإسلامية لجوزيف بورلو، ريمة الفوال، ط/1، 2001م، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان.

17ـ حضارة العرب، لغوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة الحلبي، القاهرة ـ مصر.

18ـ حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، لأحمد عبد الوهاب، ط/1، 1981م، مكتبة وهبة، القاهرة ـ مصر.

19ـ الدعوة إلى الإسلام، لتوماس أرنولد، ترجمة، حسن إبراهيم، عبد المجيد عابدين، ط/2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

20ـ السياسة الشرعية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية، لعبد الوهاب خلاف، ط/1، 1988م، دار القلم ـ لبنان.

21ـ شمس العرب تسطع على الغرب، لزيغردهونكة، ترجمة فاروق بيضون، كمال دسوقي، ط/8، 1993م، دار الآفاق، بيروت.

22ـ الصحاح، للجوهري، ط/3، 1984م، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان.

23ـ صليب الدمار رسالة إلى بابا الفاتيكان، لليلى الهاشمي، ط مؤسسة راند هاوس، الولايات المتحدة.

24ـ فتوح مصر وأخبارها، لأبي القاسم المصري، تحقيق محمد الحجيري، ط/1، 1996م، دار الفكر، بيروت ـ لبنان.

25ـ الكفاية في علم الرواية، لأبي بكر أحمد بن علي ثابت الخطيب البغدادي، د. م، 1357هـ، دائرة المعارف العثمانية، الهند.

26ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، تأليف: أبي الحسن علي الحسيني الندوي، ط مكتبة الدعوة الإسلامية عام 1385 هـ.

27ـ المستشرقون وموقفهم من أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، أشرف عباس القاسمي، مقال منشور (مجلة الداعي الشهرية) جمادى الآخرة 1436- مارس أبريل 2015م، العدد (6)، السنة (39)، الصادرة عن دار العلوم ديوبند، الهند.

28ـ المسيحية، جنيبير، ترجمة الإمام عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية، بيروت ـ لبنان.

29ـ المفترون، خطاب التطرف العلماني في الميزان، لفهمي هويدي، ط/2، 1999م، دار الشروق، القاهرة ـ مصر.

30ـ موجز دائرة المعارف الإسلامية، ط/1، 1998م، مركز الشارقة للإبداع، الإمارات.

31ـ موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، لأحمد شلبي، ط/7، 1977م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ـ مصر.